

دولة سلاطين الماليك في الهند

(٦٠٣ - ٦٨٩ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٩٠ م)

أوجه الشبه بينها وبين دولة الماليك في مصر

للركتور أصم مختار العياري

ترجع غزوات المسلمين في الهند إلى العهود الأولى في الإسلام ، فيروى البلاذري أنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وجه عثمان بن أبي العاص الثقفي وإلى البحرين ، أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى حور الدبيل على الساحل الغربي لبلاد الهند ويعرف الآن باسم كراچی - فلقى العدو وظفر به ، فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة ، ولي عبد الله بن عامر العراق وأمره أن يوجه إلى الهند رجلاً يستطلع أخبارها ويضعها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع وصفها له . ولم يفرز أحد هذه البلاد حتى عام ٣٩ هـ حين وجه إليها علي بن أبي طالب حملة بقيادة الخارث بن مرة فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند بمأبى خراسان . وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ، غزا عبد الله بن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند ، القيقان مرتين قتل في ثانيتهما . وغزا المهلب ابن أبي صفرة الأزدي بلاد السند سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) وامتدت فتوحه إلى الأراضي الواقعة بين كابل والمثلثان جنوب البنجاب .

ولم يصبح إقليم السند ولاية إسلامية إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي حينما قام محمد بن القاسم بن محمد الثقفي وإلى مكران ، بغزو بلاد الهند بعد أن جهزه قريبه الحجاج بن يوسف الثقفي بكل ما يحتاج إليه . فسار إليها عام ٨٩ هـ (٧٠٨ م) وحاصر ثغر الدبيل وفتحه عنوة وبني مسجداً ، وواصل ابن القاسم فتوحه حتى بلغ نهر السند وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر

مهراڻ ، وهناك التقى بدهاير ملك السند ، فاقتلا قتالا شديداً ، وانتهى الأمر بقتل داهير وهزيمة اتباعه . واستمر ابن القاسم في الفتح والتوسع حتى دانت له جميع بلاد السند من الساحل الى الملتان (١) .

وعلى الرغم من أن ولاية المسلمين الذين تداولوا حكم ولاية السند زمن الأمويين والعباسيين لم يحاولوا توسيع نطاق تلك الولاية ، فقد ظل إقليم السند ولاية إسلامية قرابة قرنين من الزمان . على أن التوسع الحربي الذي قام به المسلمون في سهول الهند الشمالية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري - أو العاشر الميلادي - لم يكن مصدره إقليم السند ، وإنما كان مصدره إقليم أفغانستان عند تخوم الهند الشمالية الغربية حيث قامت في مدينة غزنة في قلب جبال سليمان ، دولة تركية قوية هي الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ - ١١٨٦ م) .

وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية في الهند كان في عهد ملكها ناصر الدين سُبُكْتِكِين الذي فتح بُست وقصداً عام ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) وهزم جيوش جَيْبَال راجا لاهور وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم ما لبث أن أسر جَيْبَال نفسه - الذي يذكر أحياناً باسم هايتال - ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية .

وجاء بعد سُبُكْتِكِين ابنه محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) الذي غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة مدفوعاً في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود أن يسط نفوذه الى ما وراء قشمير والبنجاب وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية يحكمها ولاية مسلمون من قبل الغزنوية (٢) .

(١) أنظر (البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ - ٤٢٣) . راجع كذلك : (الدكتور حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في الهند - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٩٤٤)

(٢) راجع التفاصيل في (Wolsley Haig : The Cambridge History of India Vol. III pp. 1 - 37 & H. H. Dodwell : India part I pp. A. 24 - 25 & Muir The Caliphate, Rise, Decline, and Fall p. 353 - 354 & Lane Poole : Muhammadan Dynasties p. 283 - 284 & Ency. Britannica, Art. India p. 401) و (البلاذري : نفس المصدر ٤٢٠ - ٤٢٣) .

وكيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم مدينة لاهور مقراً لحكمهم هناك ، مهّد السبيل أمام خلفائهم الغوريين ثم سلاطين المماليك الأتراك لتدعيم النفوذ الإسلامي في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية .

وقامت الدولة الغورية (٥٤٣ - ٦١٣ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥) م على أنقاض الدولة الغزنوية ، وتنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها جبال الغور وهي ولاية بين هيرآة و غزنّة . واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد الغور وأفغان و الهند . فالدولة الغورية هي ثاني دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية . غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائماً ، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة مملكتهم ، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الأتراك . وقد أكثر السلطان محمد الغوري من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد . ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده ، أجابه بأن لديه الوفاً من الأبناء ، ألا وهم مماليكه الأتراك (١) .

وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك إلى مناصب الحكم والقيادة : نذكر منهم تاج الدين يلدز Yildiz الذي حكم كرمان ، وناصر الدين كوياشا في السند ، وقطب الدين أيبك في دلي وهو أقوى الجميع نفوذاً (٢) .

واستطاع محمد الغوري بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيبك أن يملك جميع البلاد التي في شمال جبال فندياس Vindhya حتى مصبات نهر الكنج ، فيعمها الإسلام وتتحول معابدها الهندوسية إلى مساجد ، ويدفع راجاتها الجزية صاغرين .

(١) أنظر (Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule p- 65)
وتذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى في مصر ، وقد أكثر من جلب المماليك صغار السن والاعتناء بتربيتهم ، وكان يقول في هذا الصدد :
” كل الملوك عملاً شيئاً يذكرهم به ما بين مال وغنم ، وأنا عمرت أسواراً وعمت حصوناً مائة لى ولأولادى والسلمين ، وهم المماليك ” راجع (القرظي : الخطط ج ٢ ص ٢١٢) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٧ .

وكان قطب الدين أيبيك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ، ويظهر ذلك بوضوح في عدائه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائدا في الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الاسلام . وينسب لأبيك في دلهي مسجد عظيم أسماه « قوة إسلام » وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما وهي تعد أطول منارة في العالم ، ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف باسم « قطب منار » ، وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي (١) ، وقد صدر حديثا أمر بعدم الاقتراب منها بعد أن كثرت عدد المتحجرين الذين يرمون بأنفسهم من فوقها .

وفي مارس ٢٠٦ (٦٠٣ هـ) اغتيل السلطان محمد الغوري على ضفاف السند بيد أحد غلاة الأسماعيلية ، وعموته اختفت غزته والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهي (٢) كعاصمة اسلامية في الهند .

لم يعيش أيبيك بعد موت ميده سوى بضع سنوات ، اذ انتهى حكمه كسلطان مستقل على هندستان في نوفمبر ١٢١٠ م (٦٠٨ هـ) وذلك على أثر سقوطه من ظهر جواده أثناء لعبة الكرة أو البولو - جوكان - فتوفى على الأثر (٣) .

(١) أنظر (Lane - Peole : Medieval India under Mohammadan Rule p. 68 - 69) ويقال ان السلطان الشش نلوك أليه وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهي هو الذي بنى هذه المنارة عام ١٢٢١ - ١٢٢٢ تكريما لول الله قطب الدين بختيار الكمكي الذي أقام في شرفة والمندان ثم استقر أخيرا في دلهي حتى وفاته ١٢٢٥ م . راجع : (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩ ، وعن سبب تسميته بالكمكي ، أنظر كذلك (Wolseley Haig : Camb - Hist. of India III, p. 55))
(٢) وتسمى أيضا دلهي ودلي (بالقلقشلي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٨ - ٦٩) وتقع هذه المدينة في قلب سهول نهر الكنج في مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة الهند الثانية . ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهي كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لأهمية موقعها الاستراتيجي . وقد زارها الرحالة الطنجي المعروف بابن بطوطة في انقرون الثامن الهجري (١٤ م) ووصفها بقوله "وهي المدينة العظيمة الشأن ، الفخمة ، الحاسمة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند قبل مدن الاسلام كلها بالشرق" .
(رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ ص ١٦) راجع كذلك (H. Dodwell : India, I, p. 25 & Faey.

Britannica, Art. India.)

(٣) أنظر (Ency of Islam, Art. Aibeg) .

سادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفو يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء ، واستأثر بعرش دلهي لنفسه عام ١٢١٦م .

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي للدولة سلاطين المالك التي لم يعش أيبك مدة كافية ليدعم أركانها . فنيب الى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء المالك عرف باسم « الأربعة » وكان الغرض منه هو تدعيم السلطان المملوكي في الهند . ومن حسنات التتمش أنه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين ، فبوثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان إذا قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصوغ ، نظر في قضيتته وأنصفه من ظلمه (١) .

وبماز عصر هذا السلطان أيضاً بظهور المغول وزعيمهم جنكيز خان الذي حدد العالم الأميوي بأجمعه . وأول نذير دل على اقتراب هذا الخطر من الهند ، هو فرار يلدز ، حاكم غزنه ، بجيوشه الى داخل الهند ، أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المهزومة بدورها من الجيوش المغولية . أخذت هذه القوى الثلاث تتجدد جنوباً بسرعة عنيفة عابرة سلامل الجبال الشمالية الى داخل الهند . غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها ، إذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فراجعوا منسحبين عن الهند . أما الجيوش الخوارزمية وقائدها جلال الدين منكبرتي آخر شاهات خوارزم ، فاتهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس إمارة لهم في البنجاب .

تخرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحلقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه بالقتل والتشريد (٢) .

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١ .

(٢) كان يلدز - كما سبق أن ذكرنا - قد استقل بحكم خزفة بعد وفاة سيده محمد الغوري سنة ١٢٠٦ ، وكذلك قتل كوباشا في إقليم السند . وقد انتهى أمرهما بأن قتل يلدز عام ١٢١٦ م وغرق كوباشا أثناء فراره عام ١٢٢٨ ، راجع (أبر انفا : المختصر في أخبار البشر ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣) ، وكذلك (Felix Pareja : Islamologia I, p. 254 - 255) & Wolsley Haig : Op. Cit III p. 52 - 55)

ويبلغ فوز التمش أقصى مداه حينما اصترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطاناً على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والألوية والبنود في أوائل عام ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح التمش بذلك أول ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه . ويعتبر هذا العمل شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة المسلمون قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثور سيفا مثلاً ، كما كانت أسماء الغزاة تكسب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند (١) .

وتوفي السلطان التمش سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين . كانت هذه السلطنة على حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم وألت بالكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على اخوتها الذكور لانفاسهم في الملذات ونادى بها وولية لعهد . ولما آلت إليها السلطنة ، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وشماها مؤرخو الهند باسم « ملكة دوران بلقيس جهان » (٢) أي فتنة العالم .

جلست رضية الدين على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها على ظهر فيلها .

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في ادارة شئون الدولة فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء الممالك أو فرقة الأربعين الذين كانوا قد امتأثروا بالنفوذ والثروة خصوصاً بعد موت التمش

(١) أنظر (Lane . Poole : Medieval India under Moham. Rule p. 73 ; Arnold : The Caliphate p. 85 — 87 ; Ency. of Islam. Art. Illtutmish) .

(٢) E. Blochet : Histoire des Sultans Mamlouks par Moufazzal Ibn Abil - Fazail Vol. I p. 375 Note.

وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف . وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت إليها رجلا عباسيا يدعى جمال الدين ياقوت كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م - ٦٣٨ هـ (١).

في هذا الوقت ظهر المغول في إقليم الهند من جديد واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٤١م ودبحوا سكانها ، وفر حاكمها قراقوش الى دلهي . فأصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من جديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بليان أو بلان أحد مماليك التتمش ، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغيث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بليان كان ينحدر من أصل عريق وأن تحمه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حداثة تاركا أهله وأصحابه . ثم حدث أن سرق وبيع في الهند فاشتراه السلطان التتمش . وتريد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بليان في بادئ الأمر لدمايته وقصر قامته ، فصاح به بليان : « ياخوند عالم .. (أي ياسيد العالم) لمن اشتريت هؤلاء المماليك الآخرين ؟ » فأجابه السلطان ضاحكا : « اشريتهم لنفسى » . فرد عليه بليان : « أذن فاشترنى أنا لله عز وجل » ، فأجابه السلطان الى طلبه : « ثم سرعان ما ظهرت مواهبه فصار يتدرج في الرقي حتى اندمج في جماعة الأربعين مملوكا (٢) .

اشتهر بليان بشخصية عسكرية صارمة عادلة . وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الأربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدي المجرمين

(١) أنظر (Ency. of Islam, Art. Ridiyya & Camb-Hist of India Vol III p. 60) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٢) وموقف هذه السلطنة يشبه تماما موقف السلطنة شجر الدر التي حكمت مصر عام ١٢٥٠ م (٥٦٤٨ هـ) والتي أثار حكمها أيضا استياء الرأي العام الاسلامي . ويشمل ذلك في الخطاب الذي وجهه الخليفة العباسي المستنصر الى أمراء المماليك في مصر يقول لهم فيه : " ان كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجلا " وقد انتهى أمر هذه السلطنة بانقتل أيضا . راجع (المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ - ٣٦٩) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٣ . أنظر كذلك (Lane Pool: Mediev. India p. 18)

وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الأخيرة وانبتوا في المسالك والطرق بين دلهي والبنغال يعيثون فسادا وتحريبا . فأزال بليان الغابات التي كانت وكرا لتلك العصايات ، وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

كذلك عني بليان بإقامة ادارة للمخابرات في جميع المدن المختلفة ، ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد . وكان تعيين هؤلاء الأشخاص يتم تحت اشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظرا لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كفاة أرجاء الدولة ، اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، ومياسة أولى الأمر فيها . ولذا السبب حرص بليان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر . ويروى المؤرخون كيف أن بليان أمر بأعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تسر على حادث هام وقع في المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطره بذلك (١) .

وتجلت مواهب بليان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت إقليم السند عام ١٢٧٩ م - ٦٧٨ فاستحق بذلك لقب « القن خان » أي الأمير القوي . وترجع انتصارات بليان على المغول الى الاستعدادات الحائلة التي قام بها هذا السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم اذ أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد : « وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود

(١) أنظر (Wolsley Haig : Op. Cit III p. 74) راجع كذلك (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم عن مهمة أصحاب الأخبار خصوصا اذا قدم غريب على الهند .. " وأذا كتب المخبرون الى السلطان يخبرون من يصل الى بلاده .. يعرفوه أنه وزد رجل صورته كذا ولياسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلطائه وخدامه ودرايه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا ينادون من ذلك كله شيئا " . وفي سكان آخر ص ٩ نفس الجزء يقول ابن بطوطة : " وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البرية واسمه دهقان وهو حمرقندي الأصل وهو الفنى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما يحدث بها ومن يصل اليها " .

ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلين منذ تعيين سنة (١). هذا وقد اهتم بلين بتحسين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان مستقر ، كما أعد جيشاً قوياً سريعاً لصد أى هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة - وذلك على حد قوله - حتى لا تتعرض مدينة دلهى لمصير بغداد العثم (٢).

وقد ولد بلين ابنه الأكبر الشهيد محمد خان فى واقعة ضد المغول فى إقليم الملتان وذلك فى ٩ مارس ١٢٨٥ = ٦٨٤ هـ فحزن عليه حزناً شديداً ومات بعده بستين (٣).

يعتبر السلطان بلين من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، اذ أن صرامته وقوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده ؛ فقد قضى على جماعة المماليك الأربعة ونفى كثيراً من ذوى النفوذ والجاه من الحكام أو العلماء (تذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة فى شخص ابنه الأكبر الذى مات فى عهده . ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى أسرة اللالحية (٤) التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م - ٦٨٩ تحت زعامة جلال الدين تبروزشاه .

هكذا انتهت دولة المماليك الأتراك فى دلهى . ومن العجيب أننا نرى أوجه شبه عديدة بينها وبين دولة المماليك الأولى التى قامت فى القاهرة . فلقد عاصرت كل منهما الأخرى تقريبا ، اذ قامت دولة المماليك فى الهند

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلين والسلطان سيف الدين قطز أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر . فكلاهما ينحدر من أصل عربي ، وكلاهما يبيع الرقيق ، فاشترى الأول السلطان العثم ، واشترى الثانى السلطان أيلك التركانى ثم أخذوا يتدرجان فى الرقى حتى أستأثرا بالملك بعد موت أسوأدهما . وكلاهما كان متحمسا للجهاد ضد المغول وقد استطاع كل منهما أن يتخذ بلاده من ذلك الخطر المغولى الداهم الذى اجتاحت بقية العالم الاسلامى ، فانصر عليهم بلين فى السنة ١٢٧٩ ، كما انصر عليهم قطز فى عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠ .

(٢) أنظر Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 - 82

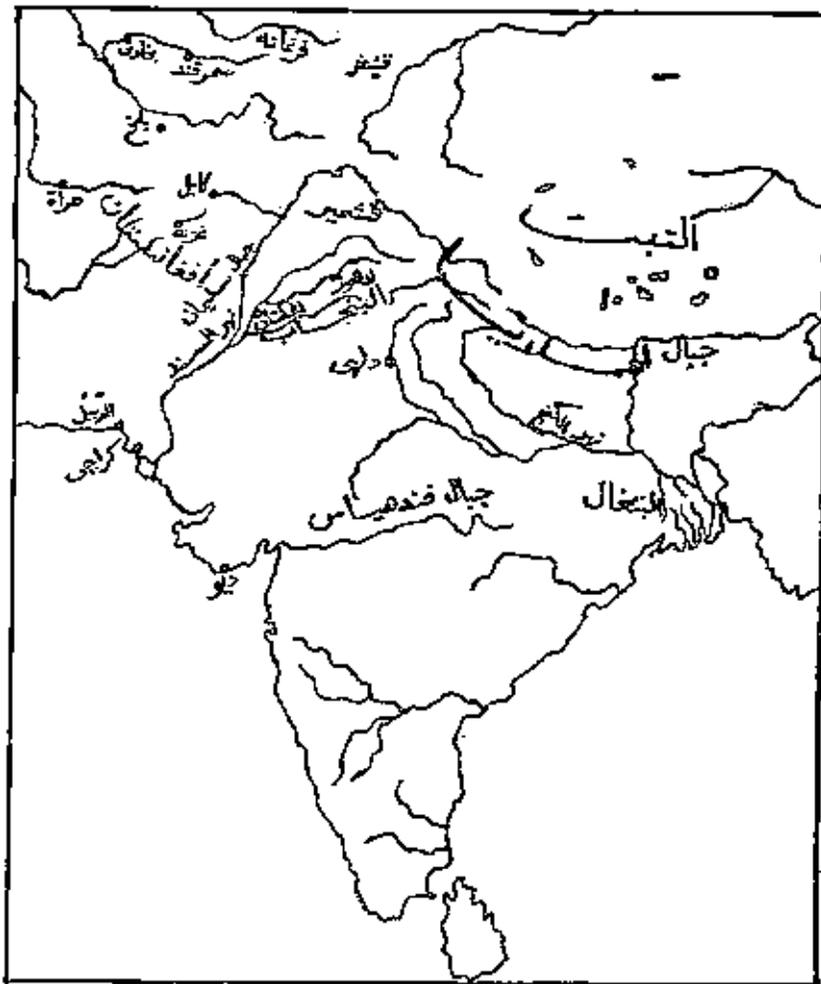
(٣) أسرة أفغانية نية لبلدة خالغ بأفغانستان وقيل انها تركية الأصل ثم فرغت الى أفغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرقتهم . أنظر (Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 - 82).

عام ١٢٠٦ م - (٦٠٣ هـ) أربعاً وأربعين سنة قبيل قيام دولة المماليك في مصر (١٢٥٠) وظلت تلك الدولة المملوكية زمناً وعاصرت الدولة المملوكية في مصر حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) .

وكان سلاطين الدولتين من المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة وربوا تربية عسكرية اسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم وضعف أسيادهم أن يتدخلوا في تولية السلاطين وعزلهم ثم يتأثروا بالملك لأنفسهم . هذا وقد كان العنصر التركي هو الغالب على مماليك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه في الأسماء أمثال أيلك وبلبان وسنقر وقراقوش وغيرهم . وحدد الخطر المغولي كلتا الدولتين ، ولولا قوة المماليك فهما لا اجتاحتها كما اجتاحت بقية العالم الاسلامي ، بل وكما اجتاحت الخند نفسها بعد زوال هذه الدولة المملوكية بمدة من الزمان .

وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها في العالم الاسلامي وهي جلوس ملكتين على عرشهما ، فعلى عرش دلمى جلست الملكة رضية الدين ، وجلست الملكة شجر الدر على عرش مصر بعدها بعشر سنوات (١٢٥٠) فكانتا مثلين للكفاءة النادرة والكياسة الممتازة ، وهناك وجه شبه آخر تلتسه في تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية (١) لأن اعترافها بهم ورضائها عنهم سرف يقوى من نفوذهم الأدبي ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم في انتزاع السلطنة منهم .

(١) ظلت دولة المماليك في الخند على ولايتها لخلقة بغداد حتى بعد أن قتل المغول الخليفة المستنصر وتضرا على الخلافة العباسية ببغداد ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ، إذ ظل السلطان بلبان يتفلسف اسم الخليفة المقتول على نفوذه ويذكر اسمه في الخطبة كل المنابر طوال عهده (١٢٦٥ - ١٢٨٧) راجع (Arnold: The Caliphate p. 87) وهذه الظاهرة التريفة تجددها أيضاً بوضوح في اليمن حيث بقي ادعاء لخلقة العباسي المقتول المستنصر باقية الى ما بعد سنة ٧٩٨ هـ . راجع (الحزرجي : العمود التوثيقية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٦٩) ويجده هذه الظاهرة أيضاً في بلاد المغرب حيث يروي ابن خلدون أنه في عام ٦٦٢ ثار والي طنجة عن صاحب سبته وخطب للخليفة العباسي صاحب بغداد . أنظر (البرج ص ٧ ص ١٨٦ ؛ السلاوي ج ١ ص ١٧) . هذا ومن المعروف أن سلاطين المماليك بمصر عملوا على احياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد زوالها من بغداد وقد تم ذلك فعلاً في عهد السلطان بيوس البنقداري سنة ١٢٦١ م . واستمرت كذلك الى أن زالت نهائيًا عقب الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧) .



الهند في القرن السابع الهجري (ثلاثان عشر للمدري)